مراجعات في الكتب

Andras Hamori, *The Composition of Mutanabbi's Panegyrics to Sayf al-Dawla*, E. J. Brill, Leiden 1992.

أبو الطيب المتنبي شاعر كبير من شعراء العربية، بل أكبر شعرائها في العصر العباسي. ولقد صدق ابن رشيق القيرواني حين قال عنه إنه «ملأ الدنيا وشغل الناس». فمنذ ظهوره في القرن الهجري الرابع/ الميلادي العاشر ذاع صيته كشاعر مادح له شخصيته الخاصة واسلوبه ومميزاته، وأثار أسلوبه في الشعر جدلاً كبيراً؛ فمن مؤيد ومن معارض، ومن متحامل ومن منصف. وكان من نتيجة هذا الجدل أن كثرت الكتب والرسائل التي تناولت الشاعر وشعره قديماً وحديثاً، حتى وصلت بيبليوجرافيا المتنبي الى بضع مئات ـ عدا عن الفصول التي تناولته في أبحاث أو كتب عامة.

وحين تناول المستشرقون الأدب العربي بالدراسة والتحليل لفت انتباههم هذا الشاعر الكبير؛ فأسهموا بدورهم في دراسته ومحاولة فهمه، وتقييم شعره تقييماً موضوعياً. من هؤلاء المستشرقين الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي والايطالي فرانشيسكو غبريئيلي، ومجموعة من الفرنسيين ابرزهم ريجيه بلاشير الذي كتب **ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين** ـ الى جانب مجموعة أخرى من المقالات عنه.

ولقد درس أندراس هاموري شعر المتنبي سابقاً، فنشر مقالة تحت عنوان «قراءة لقصيدة المتنبي في حصار قلعة الحدث» في كتاب **دراسات عربية وإسلامية** ـ لتكريم الدكتور إحسان عباس، الذي صدر في بيروت في سنة ١٩٨١، بتحرير الدكتورة وداد القاضي. وها هو الآن يصدر هذا الكتاب الذي يدرس فيه اثنتين وعشرين قصيدة من قصائد المدح التي كتبها المتنبي لسيف الدولة حين كان في بلاطه في حلب بين السنوات ٣٧٧-٣٤٥ هـ / ٩٤٨-٩٥٦ م.

يقع الكتاب في مائة وسبع وعشرين صفحة من القطع المتوسط، يغطي البحث الصفحات ١-٨٦ منها، وتغطي النصوص المدروسة (وهي ليست دائماً كاملة من مطلع القصيدة حتى نهايتها) الصفحات ٨٧-١٢٥، تتلوها قائمة المراجع.

حدد المؤلف هدفه من البحث في المقدمة التي ذكر فيها أنه ينوي «اكتشاف ووصف أنماط تأليف متكررة في اثنتين وعشرين مدحية مهمة كتبها المتنبي لسيف الدولة» ثم قدم بحثه في ثمانية فصول قصيرة مليئة بالشواهد.

وقد قرر المؤلف ان يبدأ بدراسة نهايات القصائد ـ البيت الأخير او الأبيات الأخيرة في بعض الحالات، بسبب سهولة دراستها ووصفها، ولأن ما يقوله الشاعر في نهاية القصيدة له انعكاس على تحليل الاجزاء الأخرى منها. هكذا استعرض المؤلف في الفصل الأول (ص ١ـ٥) نهايات مدحيات المتنبي فوجد أنها تتألف من:

أـ دعاء او تمنٍّ كقوله (في نهاية النص رقم ٣)

فلا هجمت بها إلا على ظفر ولا وصلت بها الا إلى أملِ

ب- أو مثل أو حكمة كقوله (في نهاية النص رقم ١١)

وما ينصر الفضل المبين على العدى اذا لم يكن فضل السعيد الموفق

هذه النهايات تشير بشكل لا مباشر الى الممدوح. وقد يظهر المبنى اللغوي للشعر التناقض بين الممدوح وباقي البشر كقوله مثلاً (في نهاية النص رقم ٧):

ان السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع

ج- ويشكل المبنى الشرطي نوعاً ثالثاً من النهايات التي صاغها المتنبي، كذلك قد تكون الحكمة مصوغة بشكل مبنى شرطي؛ الا أن المؤلف يبحث في الجمل الشرطية التي تشير بوضوح الى أناس بعينهم، فتخرج بهذا من نطاق الصياغات الشرطية العامة. قال المتنبي (في نهاية النص ١٣):

إذا سأل الانسان أيامه الغنى وكنتَ على بُعدٍ جعلتكَ موعدا

وأنهى النص ٢١ ببيت يتألف من جملتين شرطيتين:

فإذا رأيتك حار دونك ناظري واذا مدحتك حار فيك لساني

وقد تكون الجملة الشرطية جزءاً من نهايةٍ اكثر تعقيداً ـ كما في نهاية النص ٥:

ولولا قدرةُ الخّلاق قلنا أعمداً كان خَلقك أم وفاقا

فلا حظتْ لك الهيجاءُ سرجاً ولا ذاقت لك الدنيا فراقا

و يلحق بهذه المباني الشرطية صيغ تشبه مبنى جملة الشرط لكنها ليست شرطية، كقوله (في نهاية النص ٩):

فمن كان يُرضي اللُّؤمَ والكفرَ ملكُه فهذا الذي يُرضي المكارمَ والربّا

وقد لاحظ المؤلف ان هذا النوع من نهايات قصائد المتنبي يظل موجوداً حتى بعد أن ترك الشاعر مدينة حلب، ولكن نسبة وجودها تتغير. وأشار الى أن نهايات الحكمة اختفت من مدائح المتنبي لكافور، ذلك ان الشاعر مدح في حلب أميراً أحبه ومدح في مصر رجلاً احتقره. ثم تساءل: هل ترك المتنبي نهايات الحكمة في مصر نتيجة موقفه من كافور؟

في الفصل الثاني (ص ٦-١٨) يعرض المؤلف لأسلوب المتنبي في التمهيد لسرد الأحداث التاريخية في مدائحه التي تحتوي على وصف لأحداث عسكرية او لغزوات، و يلاحظ ان بعض هذه القصائد يحتوي على مقطوعات من الوصف التقليدي - مع ذكر أسماء الأماكن ووصف القتال وغبار المعركة ووصف القتلى على الأرض - ولكن بعض القصائد الأخرى يحتوي على تفاصيل تاريخية أو طوبوغرافية حية. والمؤشر الأساسي في هذه الحالات هو أن جزءاً من القصيدة مصوغ بتسلسل منطقي بهدف وصف حوادث معينة بتسلسل زمني؛ و يظل هذا التسلسل واضحاً حتى لو اعترض السرد بعض الأمور الأخرى. ففي النص الثاني الذي مطلعه:

أعلى الممالك ما يبنى على الأَسَلِ والطعن عند محبّيهنّ كالقبل

يصف الشاعر الجيش والمعركة والبطل في ساحة القتال، ثم تظهر قطعة في الاستهزاء بالأعداء يليها بيتان عن علاقة الشاعر بالخليفة، ثم يعود الشاعر الى السرد. ولا يؤدي التخلص من النسيب الى وصف الأحداث مباشرة، بل الى وصف موجز للحدث.

وقد توصل الباحث الى وضع تخطيط أساسي لمبنى هذا النوع من القصائد، هو هذا، مع الملاحظة انه لا يراعي بدقة في كل حالة:

نسيب او حكمة ـــ مدح عام ـــ وصف موجز او اشارة الى الموضوع ـــ فعل في بدايةالبيت ـــ سرد الأحداث.

ففي القصيدة ١٣ التي مطلعها:

لكل امرىءٍ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

يبدأ الشاعر بحكمة يطبقها على ممدوحه ثم يسير في المدح العام، الذي ينتهي عند البيت العاشر. و يشكل البيت الحادي عشر

لذلك سمّى ابن الدمستق يومه مماتاً وسماه الدمستق مولدا

موجزاً وإشارة أولى للحادثة المعينة ولنتائجها على الأطراف المتصارعة. ثم يبدأ السرد ـ سرد تفاصيل الحادثة ـ في البيت ١٢ الذي يستهله الشاعر بفعل ماضٍ.

سريتَ الى جيحان من أرض آمدٍ ثلاثاً لقد أدناك ركضٌ وأبعدا

وقد يخرج الشاعر عن هذا التخطيط بأن يأتي بوصف مفصل للأحداث بدل الوصف الموجز. مثال ذلك النص رقم ١٦، وهو القصيدة التي مطلعها

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وهو مطلع يشتمل على حكمة، ثم تأتي الأبيات ٧ـ١٥ لتقدم تفاصيل عن واقعة قلعة الحدث وتقلباتها ـ دون تسلسل زمني. وقد تنبه المؤلف الى خصوصيات هذا المبنى فأبرز ظاهرتين أساسيتين

أولاهما: انه بعد أداتي الاستفهام المتلوّتين بأسماء أعلام في البيتين ٧ و١٤ (هل الحدثُ الحمراء...؛ وكيف يُرجّي الرومُ والروسُ...) يتحكم نوع من ازدياد حدة الصوت في الصياغة.

وتسير الأبيات بعد السابع من الصراع البشري الى انتصار الأمير على العدو الاكبر ـ الدهر ـ لصالح الدين. وتسير الأبيات التي تتلو ١٤ من الصراع البشري الى صورة الموت المشخّص ـ المنايا ـ التي يصورها الشاعر متحكمة بمصائر البشر.

ثانيتهما: أن قطعة في الهجاء تتلو تسجيل أو وصف النصر في قصائد عديدة.

وقد تخلو القصيدة من وصف موجز للحدث، ولكن يستبدل بقطع قصيرة تشكل جسراً يركز انتباه القارىء على الموضوع، قبل ان يبدأ التسجيل المتسلسل للأحداث بفعل يدل على حركة. هكذا يبدأ النص رقم ٩ بنسيب ثم ينتقل الى مدح عام، وبعد فاصل من الدعاء تبدأ قطعة قصيدة ـ جسر ـ تكشف عن الموضوع الأساسي: الحرب في الثغور.

وقد خصص المؤلف الفصل الثالث من البحث (ص ١٩-٣٤) لأنواع الصيغ او التعابير التي تتكرر عند الشاعر في توقفه في اثناء القصيدة، عند انتهائه من بحث موضوع ما او عند تهيئة دخوله في موضوع جديد.

وقد حدد المؤلف انواعاً للبدايات في داخل القصيدة، تعتمد على بعض الصيغ النحوية مع ربطها بالموضوع، وبحث الاعتماد على التعابير التي تسبق وصف الاحداث التاريخية، فوجد ان منها ما يعرض حقيقة عامة ومنها ما سماه ابو هلال العسكري «التشبيه المليح»، ومنها «حسن التقسيم» الخ، ثم تناول ما يسبق القطع التي يتحدث فيها الشاعر بضمير المتكلم عن علاقته بممدوحه وبمنافسيه، كما بحث ما يسبق الشروع بالهجاء.

هكذا مثلاً بدأ المتنبي بيته التاسع من القصيدة التي مطلعها «غيري بأكثر هذا الناس ينخدع...» وهي النص السابع في الدراسة، بحكمة عامة انتقل منها الى مدح ابن أبي الهيجاء، أي سيف الدولة:

بالجيش تمتنع السادات كلُّهم والجيشُ بابن أبي الهيجاء يمتنع

وقد تكرر هذا في اربع قصائد، أما قبل الشروع بالهجاء فقد تكرر مبنى الجملة الشرطية في حالتين - وتكرر «التقسيم» في وصف هزيمة الاعداء في الحالات الأخرى. وقد بحث المؤلف في هذا الفصل التعابير او المعاني النحوية التي تتكرر في نفس الموقع من مجموعة أبيات متكررة، كما نرى في الأ بيات الآتية التي توجز الأحداث. قال المتنبي - في النص ١٨:

ولما كسا كعباً ثياباً طغوا بها رمى كلَّ ثوبٍ من سنانٍ بخارق
ولما سقى الغيث الذي كفروا به سقى غيره في غير تلك البوارق
وما يوجع الحرمان من كف حارمٍ كما يوجع الحرمان من كف رازق
أتاهم بها حشو العجاجة والقنا . . . . .

في البيتين الأولين يظهر المبنى اللغوي واضحاً متكرراً، و ينهي البيت الثالث موجز الأحداث بهذه الحكمة، ثم يبدأ السرد المفصل للأحداث بالبيت الرابع الذي يستهله الفعل الماضي.

في الفصل الرابع (ص ٣٥-٥٠) يدرس المؤلف خصائص مدائح المتنبي بعد الانتهاء من سرد الأحداث التاريخية، فيلحظ تكرار أفعال او عبارات تشير الى القتلى الذين تركوا على أرض المعركة، او الى الذين هربوا من القتال، وعندها ينتهي سرد الأحداث.

(ترك، غادر، خلّف، لم يبق..)

بعد الانتهاء من السرد يعود الشاعر غالباً الى المدح العام، وهذا يتم بأسلوبين. الأول هو المقارنة بين الممدوح والملوك الآخرين، والآخر هو استعمال صيغ التكثير (كم، رب، وأضحى ذكره في كل قطر، تعوّدا)، ويستعرض المؤلف هذا السياق وصوره المتنوعة في القصائد المختلفة.

بعد المدح العام يخلص الشاعر الى نهاية القصيدة، وقد أشار المؤلف الى أنواعها المختلفة سابقاً؛ الا أن ما أضافه هنا هو أن الأبيات التي ينظمها الشاعر بعد نهاية سرد الاحداث تشتمل غالباً على تكثيف لبعض الموتيفات في الشعر، مثل ذكر الله والقدر، والدهر والليالي وغير ذلك. فقد ذكر المجد تسع مرات في السدس الأخير من ثلاث من القصائد المدروسة، وذكر الله سبع عشرة مرة في السدس الأخير من ثماني قصائد، وذكر الدهر والليالي أربع عشرة مرة في السدس الأخير من اربع قصائد، وهكذا.

وقد تنبه المؤلف الى وجود عدد من النصوص يعيد الشاعر فيها ذكر حدث معين على خلفية المدح العام الذي يوجهه لسيف الدولة. فحين مدحه بعد غزوة بني كعب، أشار الى بني نمير الذين كانوا أرشد منهم لأنهم:

أعدّوا رماحاً من خضوعٍ فطاعنوا بها الجيش حتى ردّ غربَ الفيالقِ

وبالاعتماد على نصوص أخرى يبرز المؤلف التداخل بين نهاية سرد الأحداث وخصائص نهايةالقصيدة.

في الفصل الخامس (ص ٥١-٦٣) يدرس المؤلف مبنى مدائح المتنبي التي لا تعتمد على حادثة معينة (غزوة او معركة)، بل تدخل في نطاق المدح العام، وقد تبدو قصيدة من هذا النوع مجرد تعداد لمناقب الممدوح، لذلك عمد الشاعر الى أجراءات معينة في شكل القصيدة ليتحاشى الرتابة.

ولأن شعر المدح قديماً دار على غرضين اثنين هما الشجاعة والكرم جاءت قصيدة المتنبي في المدح العام لتعرض صفات سيف الدولة في هذين الغرضين الأساسيين.

يركز المؤلف بحثه هنا على المميزات اللغوية للقصيدة: الألفاظ وتشابه الأصوات، التعابير والتكرار، والبيت او الأبيات التي تنقل الحديث من غرض لآخر. ويرينا المؤلف من خلال النصوص المدروسة وأحياناً بالاستعانة بنصوص أخرى لنفس الشاعر ان بيت او أبيات الانتقال من غرض لآخر تشتمل على ألفاظ وعبارات مشتركة للغرضين، يتم الانتقال بعدها الى الحديث المفصل في الغرض الثاني. هكذا تتداخل ألفاظ الكرم والشجاعة في الأبيات الآتية، وينقل عجز البيت الثالث منها الحديث الى شجاعة الممدوح ليستمر بعده في نفس الغرض:

هُـــون المـــال أفـــرشَـــهُ أديمـــا وللـــتـــفـــريـــق يـكـره أن يـضـيـعـا
اذا ضـــربَ الأمير رقـــاب قـــوم فـمـا لـكـرامـةٍ مـدّ الـنُّـطُـوعـا
فـلـيـس بـواهـبٍ الا كـثـيـراً ولـيـس بـقـاتـلٍ الا قـريـعـا

هكذا يجول الشاعر في مدحه في نطاق غرض معين - وتوصلنا النماذج المعروضة الى رؤية مدى الترابط بين الشكل والموضوع - حين يكون الغرض الواحد هو الاطار الذي يعمل ضمنه الشاعر.

وقد خصص المؤلف الفصل السادس من الكتاب (ص ٦٤-٧٠) للنص رقم ٨، وهو القصيدة التي مطلعها.

عـواذل ذات الخـال فـيّ حـواسـدُ وان ضـجـيـع الخـود مـنـي لـماجـدُ

والتي قالها «وقد أراد سيف الدولة قصد خرشنة فعاقه الثلج عن ذلك».

اي انها من القصائد التي لا تعتمد حدثاً لوصف أمور محددة، بل تدخل في نطاق المدح العام. وقد أظهر المؤلف من خلال تحليله لمبنى هذه القصيدة أنها قريبة من القصائد التي تصف غزوة محددة، اذ يذكر في اثناء المدح صفات ممدوحه، فهو الشجاع الذي شقيت به بلاد الروم، وقد خاطبه قائلاً:

شننت بها الغارات حتى تركتها وجفن الذي خلف الفرنجة ساهد

وهو بهذا البيت المبدوء بفعل ماضٍ يدل على حركة يوحي بأنه سيبدأ بسرد الحادثة المحددة، ولكن يظل في نطاق الوصف العام مستعيناً بتعابير مكررة في الفخر بالشجاعة -

كذكر الطعن والضرب ـ وذكر المواقع الجغرافية التي كان للممدوح فيها شأن ـ ثم يرتكز المدح على شخص الممدوح (في البيت ٢٧) يتبعه مديح عام وصفات مألوفة.

وقد استطاع المتنبي في هذه القصيدة أن يتجاوز خيبة الأمل من توقف الغزوة بسبب الثلج، عن طريق اللجوء الى مدح سيف الدولة بانتصاراته الماضية ـ وهذا ما جعل مبنى هذه القصيدة قريباً من مبنى القصائد الأخرى التي تعتمد على حروب الممدوح وغزواته.

بعد تحليل مدائح المتنبي في سيف الدولة ألقى المؤلف في الفصل السابع (ص ٧١-٧٥) نظرة سريعة على القصائد التي كتبها الشاعر قبل وصوله الى بلاط الأمير الحمداني ليرى كيف ظهرت فيها تلك الخصائص التي بحثت في الفصول السابقة، كما لاحظ التغييرات التي طرأت على هذه الخصائص بعد خروج الشاعر من حلب.

أما الفصل الثامن والأخير (ص ٧٦-٨١) من هذه الدراسة فقد خصصه المؤلف لبعض النصوص القديمة التي تحتوي على خصائص مبنى قصيدة المتنبي. ذلك ان هذا الشاعر كان واسع الثقافة بطبيعة الحال، وعلى اطلاع واسع على الموروث الشعري القديم، ولم يكن أول من استعمل هذه الخصائص. ففي العصر الجاهلي ظهرت في قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها.

أتاركة تدللها قطام وضناً بالتحية والسلام

وفيها يحتل النسيب الأبيات من ١-١٤، ثم يصف الشاعر حزم ابن هند وبأسه في غزوه القبائل، ويصف الجيش ومسير القائد وانتصاره. هذه العناصر يعتبرها المؤلف أسساً لما في قصيدة المتنبي من عناصر ترد في وصف انتصارات سيف الدولة ـ وقد مرت هذه العناصر من خلال قصيدة لأعشى ميمون يصف فيها انتصار العرب في يوم ذي قار. كذلك وجد المؤلف أن ذكر العدد الكبير من الضحايا في آخر قصيدة النابغة يعتبر السابقة التي اعتمد المتنبي عليها في عدد كبير من سيفياته.

أما الانتصار الذي يؤدي الى الشعور بالأمان والطمأنينة، والذي كرره المتنبي فموجود ايضاً في قصيدة النابغة.

وكما في السيفيات ـ يظهر في قصيدة النابغة ذكر الآباء والأجداد في نهاية القصيدة. وعليه تكون قصيدة النابغة هذه أقدم أثر وجد فيه المؤلف عناصر بارزة في التأليف

وترتيب المواضيع، حافظ عليها التراث الشعري العربي الى أن أخذ بها المتنبي في سيفياته.

بعد هذا العرض السريع لمحتويات كتاب اندراس هاموري عن سيفيات المتنبي، لا بد من بعض الملاحظات.

١. يعتمد هاموريه على عدد محدد من القصائد ـ وهو على اية حال عدد كاف للخروج باستنتاجات عامة.
٢. اعتمد هاموريه النص أساساً وربط بشكل واضح بين الغرض الشعري واللغة والشكل.
٣. التقى المؤلف في بحثه مع عدد من الباحثين المعاصرين الذين اعتمدوا نص قصيدة المتنبي أساساً للدراسة ـ وأخص بالذكر دراسة الدكتور صلاح عبد الحافظ: **الصنعة الفنية في شعر المتنبي** (دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٣)، وهي دراسة شاملة لكل شعر المتنبي، للغته، لمركبات العبارة والصورة الشعرية عنده، ثم للموضوع الشعري الذي بحث فيه الأغراض الشعرية والبناء الهيكلي والبناء العضوي للقصيدة. وقد التقى الباحثان في تحليلهما للتخلص في القصائد السيفيات، وفي عناصر أخرى من المبنى الهيكلي لها.
٤. والنتيجة التي يخلص لها قارىء بحث الدكتور هاموري هو أن تحديد النصوص المدروسة لتحليل هيكليتها والوصول الى أحكام عامة بالنسبة لأسلوب الشاعر أمر له ما يبرره. ذلك أن هذه الطريقة من البحث مكنت الباحث من الدخول الى أعماق القصيدة وإنارة زوايا كثيرة تساعد في فهم أعمق للشعر ولشخصية الشاعر.

جورج قنازع (جامعة حيفا)